جبير عن ابن عباس في قوله ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ قال : من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما اصاب الأمم من الخسف والقذف ؛ وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث المسعودي عن أبي سعد وهو سعيد بن المرزبان البقال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره بنحوه ، والله أعلم ؛ وقد رواه أبو القاسم الطبراني عن عبدان بن أحمد عن عيسى بن يونس الرملي عن أيوب بن سويد عن المسعودي عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ومأأرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ قال : من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلي به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف .

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلواته وسلامه عليه ان يقول للمشركين ﴿إنما يوحي اليّ انما الهكم إله واحد فهل انتم مسلمون﴾ أي متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له ﴿فإن تولوا﴾ أي تركوا مادعوتهم إليه ﴿فقل آذنتكم على سواء﴾ أي اعلمتكم اني حرب لكم كما انكم حرب لي بريء منكم كما أنتم براء مني ، كقوله ﴿فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم أعمالكم انتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون﴾ وقال ﴿واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء﴾ اي ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء ، وهكذا ههنا ﴿فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء﴾ أي اعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك .

وقوله ﴿وان ادري اقريب أم بعيد ماتوعدون﴾ أي هو واقع لامحالة ، ولكن لاعلم لي بقربه ولا ببعده ﴿انه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون﴾ أي ان الله يعلم الغيب جميعه ويعلم مايظهره العباد ومايسرون ، يعلم الظواهر والضمائر ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم ، وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل . وقوله ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين﴾ أي وما أدري لعل هذه فتنة لكم ومتاع إلى حين . قال ابن جرير : لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع الى أجل مسمى ، وحكاه عون عن ابن عباس فالله أعلم ﴿قال رب احكم بالحق﴾ أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق . قال قتادة : كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ وأمر رسول الله ﷺ ان يقول ذلك . وعن مالك عن زيد بن أسلم : كان رسول الله ﷺ إذا شهد غزاة قال ﴿رب احكم بالحق﴾ . وقوله ﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ أي على مايقولون ويفترون من الكذب ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك ، والله المستعان عليكم في ذلك .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها ، وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة : هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم الى عرصات القيامة ، او ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم ؟ كما قال تعالى : ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها﴾ وقال تعالى : ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة﴾ الآية ؛ وقال تعالى : ﴿إذا رجت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً﴾ الآية ، فقال قائلون : هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول احوال الساعة . وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا يحيى ، حدثنا سفيان عن الأعمش عن ابراهيم عن علقمة في قوله ﴿ان زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ قال : قبل الساعة ، ورواه ابن أبي حاتم من حديث الثوري عن منصور والأعمش عن ابراهيم عن علقمة فذكره ؛ قال : وروي عن الشعبي وابراهيم وعبيد بن عمير نحو ذلك . وقال ابو كدينة عن عطاء بن عامر الشعبي ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ قال : هذا في الدنيا قبل يوم القيامة . وقد اورد الامام ابو جعفر بن جرير مستند من قال ذلك في حديث الصور من رواية اسماعيل بن رافع قاضي اهل المدينة عن يزيد بن ابي زياد ، عن رجل من الأنصار عن محمد بن كعب القرظي ، عن رجل عن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «ان الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه شاخص ببصره الى العرش ينتظر متى يؤمر» قال ابو هريرة : يارسول الله وما الصور ؟ قال : قرن . قال : فكيف هو ؟ قال «قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات : الاولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ؛ يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول : انفخ نفخة الفزع ، فيفزع اهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر ، وهي التي يقول الله تعالى : ﴿وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق﴾ فتسير الجبال فتكون ترابا ، وترج الأرض بأهلها رجاً ، وهي التي يقول الله تعالى : ﴿يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة﴾ فتكون الأرض كالسفينة الموبقة في البحر تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها ، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح فيمتد الناس على ظهرها ، فتذهل المراضع وتضع الحوامل ، ويشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب في وجوهها فترجع ، ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً ، وهي التي يقول الله تعالى : ﴿يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فماله من هاد﴾ فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ، ورأوا امراً عظيما ، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله اعلم به . ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل ، ثم خسف شمسها وقمرها ، وانتثرت نجومها ثم كشطت عنهم - قال رسول الله ﷺ - والأموات لايعلمون بشيء من ذلك» قال ابو هريرة : فمن استثنى الله حين يقول ﴿ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ قال «اولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء ، اولئك أحياء عند ربهم يرزقون ، ووقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم ، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه ، وهو الذي يقول الله ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾» وهذا الحديث قد رواه الطبراني وابن جرير وابن ابي حاتم وغير واحد مطولاً جداً ، والغرض منه انه دل على ان هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة اضيفت إلى الساعة لقربها منها ، كما يقال أشراط الساعة ونحو ذلك ، والله أعلم ، وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور ، واختار ذلك ابن جرير ، واحتجوا بأحاديث :

[الاول] قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن هشام ، حدثنا قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين ان رسول الله ﷺ قال وهو في بعض اسفاره ، وقد تقارب من اصحاب السير رفع بهاتين الآيتين صوته . ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ فلما سمع اصحابه بذلك حثوا المطي ، وعرفوا انه عند قول يقوله ، فلما دنوا حوله قال «أتدرون أي يوم ذاك ، ذاك يوم ينادي آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل ، فيقول : ياآدم ابعث بعثك إلى النار ، فيقول : يارب وما بعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة» قال : فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا أيضاً حكمه ، فلما رأى ذلك قال «ابشروا واعملوا ، فوالذي نفس محمد بيده انكم لمع خليقتين ماكانتا مع شيء قط إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بني آدم وبني ابليس» قال : فسري عنهم ، ثم قال «اعملوا وابشروا ، فوالذي نفس محمد بيده ماأنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو الرقمة في ذراع الدابة» وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما عن محمد بن بشار عن يحيى وهو القطان ، عن هشام وهو الدستوائي عن قتادة به بنحوه ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

[طريق آخر] لهذا الحديث . قال الترمذي : حدثنا ابن ابي عمر ، حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا ابن جدعان عن الحسن عن عمران بن حصين ان النبي ﷺ قال لما نزلت ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم ـ الى قوله ـ ولكن عذاب الله شديد﴾ قال : نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر ، فقال «اتدرون اي يوم ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال ـ ذلك يوم يقول الله لآدم : ابعث بعث النار ، قال : يارب ومابعث النار ؟ قال : تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة» فأنشأ المسلمون يبكون ، فقال رسول الله ﷺ «قاربوا وسددوا ، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية ، قال : فيؤخذ العدد من الجاهلية ، فإن تمت ، وإلا كملت من المنافقين ، ومامثلكم ومثل الامم الا كمثل الرقمة في ذراع الدابة او كالشامة في جنب البعير ثم قال ـ اني لأرجو ان تكونوا ربع اهل الجنة ـ فكبروا ثم قال ـ اني لأرجو ان تكونوا ثلث اهل الجنة ـ فكبروا ثم قال ـ اني لأرجو ان تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا ثم قال : ولاأدري أقال الثلثين ام لا ؛ وكذا رواه الامام احمد عن سفيان بن عيينة به . ثم قال الترمذي ايضاً : هذا حديث صحيح . وقد روي عن عروة عن الحسن عن عمران بن الحصين وقد رواه ابن ابي حاتم من حديث سعيد بن ابي عروبة عن قتادة عن الحسن والعلاء بن زياد العدوي عن عمران بن الحصين فذكره ، وهكذا روى ابن جرير عن بندار عن غندر عن عوف عن الحسن قال : بلغني ان رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة العسرة ومعه أصحابه بعد ما شارف المدينة قرأ ﴿ياايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ وذكر الحديث فذكر نحو سياق ابن جدعان ، والله أعلم .

[الحديث الثاني] قال ابن حاتم : حدثنا ابي ، حدثنا ابن الطباع ، حدثنا ابو سفيان يعني المعمري ، عن معمر عن قتادة عن انس قال : نزلت ﴿ان زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ وذكر ، يعني نحو سياق الحسن عن عمران غير انه قال : ومن هلك من كثرة الجن والانس . ورواه ابن جرير بطوله من حديث معمر .

[الحديث الثالث] قال ابن ابي حاتم : حدثنا ابي ، حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد يعني ابن العوام ، حدثنا هلال بن حباب عن عكرمة عن ابن عباس قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر نحوه ، وقال فيه «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ـ ثم قال ـ إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ـ ثم قال ـ إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة» ففرحوا ، وزاد ايضاً «وإنما أنتم جزء من ألف جزء» .

[الحديث الرابع] قال البخاري عند تفسير هذه الآية : حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا ابي ، حدثنا الأعمش ، حدثنا ابو صالح عن ابي سعيد قال : قال النبي ﷺ «يقول الله تعالى يوم القيامة : ياآدم ، فيقول : لبيك ربنا وسعديك ، فينادي بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال : يارب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد ﴿وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم . قال النبي ﷺ «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنك واحد ، أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، او كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، إني لأرجو ان تكونوا ربع أهل الجنة ـ فكبرنا ثم قال ـ ثلث أهل الجنة ـ فكبرنا ثم قال ـ شطر أهل الجنة» فكبرنا ؛ وقد رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع ، ومسلم والنسائي في تفسيره من طرق عن الأعمش به .

[الحديث الخامس] قال الإمام أحمد : حدثنا عمارة بن محمد ابن أخت سفيان الثوري وعبيدة العمي ، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم عن ابي الأحوص عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً : ياآدم إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلى النار ، فيقول آدم : يارب من هم ؟ فيقال له : من كل مائة تسعة وتسعون» فقال رجل من القوم : من هذا الناجي منا بعد هذا يارسول الله ؟ قال «هل تدرون ماأنتم في الناس إلا كالشامة في صدر البعير» انفرد بهذا السند وهذا السياق الإمام أحمد .

[الحديث السادس] قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن حاتم بن ابي صغيرة ، حدثنا ابن ابي مليكة أن القاسم بن محمد أخبره عن عائشة عن النبي ﷺ قال «إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاة عراة غرلا» قالت عائشة : يارسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ، قال «ياعائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك» أخرجاه في الصحيحين .

[الحديث السابع] قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن ابي عمران عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت : قلت يارسول الله ، هل يذكر الحبيب حبيبه ، يوم القيامة ؟ قال «ياعائشة أما عند ثلاث فلا ، أما عند الميزان حتى يثقل او يخف فلا ، وأما عند تطاير الكتب إما يعطى بيمينه وإما يعطى بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار فيطوى عليهم ويتغيظ عليهم ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة : وكلت بمن

ادعى مع الله إلهاً آخر ، ووكلت بمن لايؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد ـ قال ـ فينطوي عليهم ويرميهم في غمرات جهنم ، ولجهنم جسر أرق من الشعر وأحد من السيف ، عليه كلاليب وحسك يأخذان من شاء الله ، والناس عليه كالبرق وكالطرف وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : يارب سلم ، سلم . فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكور في النار على وجهه» .

والأحاديث في اهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جداً لها موضع آخر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ان زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ اي امر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق مفظع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب ، والزلزال هو مايحصل للنفوس من الرعب والفزع ، كما قال تعالى : ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ ثم قال تعالى : ﴿يوم ترونها﴾ هذا من باب الضمير الشأن ، ولهذا قال مفسراً له ﴿تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ اي فتشتغل لهول ماترى عن أحب الناس اليها ، والتي هي أشفق الناس عليه تدهش عنه في حال ارضاعها له ، ولهذا قال ﴿كل مرضعة﴾ ولم يقل مرضع ، وقال ﴿عما أرضعت﴾ اي عن رضيعها فطامه . وقوله ﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ أي قبل تمامه لشدة الهول ﴿وترى الناس سكارى﴾ وقرىء ﴿سكرى﴾ اي من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم ، فمن رآهم حسب أنهم سكارى ﴿وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى ، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه متبعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد من الانس والجن ، وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل يتركون ماأنزله الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون اقوال رؤوس الضلالة الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء ، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ اي علم صحيح ﴿ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه﴾ قال مجاهد : يعني الشيطان ، يعني كتب عليه كتابة قدرية ﴿انه من تولاه﴾ أي اتبعه وقلده ﴿فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ أي يضله في الدنيا ، ويقوده في الأخرة إلى عذاب السعير ، وهو الحار المؤلم المقلق ، المزعج ، وقد قال السدي عن ابي مالك : نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث ، وكذلك قال ابن جريج .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن مسلم البصري ، حدثنا عمرو بن البختري أبو قتادة ، حدثنا المعتمر ، حدثنا أبو كعب المكي قال : قال خبيث من خبثاء قريش اخبرنا عن ربكم من ذهب هو ، أو من فضة هو ، أو من نحاس هو ؟ فتقعقعت السماء قعقعة ـ والقعقعة في كلام العرب الرعد ـ فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه . وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد : جاء يهودي فقال : ياأمحمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو من در أم من ياقوت ؟ قال : فجاءت صاعقة فأخذته .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد ، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق قال ﴿ياأيها الناس إن كنتم في ريب﴾ أي في شك ﴿من البعث﴾ وهو المعاد ، وقيام الأرواح والأجساد ، يوم القيامة ﴿فأنا

خلقناكم من تراب﴾ اي اصل برئه لكم من تراب ، وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام ﴿ثم من نطفة﴾ اي ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ثم من علقة ثم من مضغة﴾ وذلك انه اذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت اربعين يوماً كذلك يضاف اليه مايتجمع اليها ، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله ، فتمكث كذلك اربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لاشكل فيها ولا تخطيط ، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء ، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ، ولهذا قال تعالى : ﴿ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾ اي كما تشاهدونها ﴿لنبين لكم ونقر في الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى﴾ اي وتارة تستقر في الرحم لاتلقيها المرأة ولاتسقطها ، كما قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ قال : هو السقط مخلوق وغير مخلوق ، فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهي مضغة ، أرسل الله تعالى ملكاً اليها فنفخ فيها الروح وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح ، وذكر وانثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقي او سعيد .

كما ثبت في الصحيحين من حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق احدكم يجمع في بطن امه اربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله اليه الملك فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب رزقه وعمله واجله ، وشقي او سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح» .

وروى ابن ابي حاتم وابن جرير من حديث داود بن ابي هند عن الشعبي عن علقمة عن عبد الله قال : النطفة اذا استقرت في الرحم ، جاءها ملك بكفه فقال يارب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قيل : غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفتها الارحام دما ، وإن قيل : مخلقة قال : اي رب ذكر او انثى ، شقي او سعيد ، ماالاجل ومالأثر ، وبأي ارض يموت ؟ قال : فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول : الله ، فيقال من رازقك ؟ فتقول الله ؛ فيقال له : اذهب إلى الكتاب ، فانك ستجد فيه قصة هذه النطفة ، قال : فتخلق فتعيش في اجلها وتأكل رزقها وتطأ اثرها ، حتى اذا جاء اجلها ماتت فدفنت في ذلك ، ثم تلا عامر الشعبي ﴿ياايها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾ فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع فكانت نسمة ، وإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دما ، وإن كانت مخلقة نكست نسمة .

وقال ابن ابي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقري ، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن ابي الطفيل عن حذيفة بن اسيد يبلغ به النبي ﷺ قال «يدخل الملك على النطفة بعد ماتستقر في الرحم بأربعين يوما او خمس واربعين ، فيقول : اي رب اشقي ام سعيد ؟ فيقول الله ويكتبان ؛ فيقول : اذكر ام انثى ؟ فيقول الله ويكتبان ، ويكتب عمله واثره ورزقه واجله ، ثم تطوى الصحف فلا يزاد على مافيها ولا ينتقص» ورواه مسلم من حديث سفيان ابن عيينة ومن طريق آخر عن ابي الطفيل بنحو معناه .

وقوله ﴿ثم نخرجكم طفلا﴾ اي ضعيفا في بدنه وسمعه وبصره وبطشه وعقله ، ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا ، ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل واطراف النهار ، ولهذا قال ﴿ثم لتبلغوا اشدكم﴾ اي يتكامل القوي ويتزايد ، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المظهر ، ﴿ومنكم من يتوفى﴾ اي في حال شبابه وقواه ، ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ وهو الشيخوخة والهرم وضعف القوة والعقل والفهم وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر ، ولهذا قال ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئا﴾ كما قال تعالى : ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق مايشاء وهو العليم القدير﴾ .

وقد قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده : حدثنا منصور ابن أبي مزاحم ، حدثنا خالد الزيات ، حدثني داود أبو سليمان عن عبد الله بن عبد الرحمن ابن معمر بن حزم الأنصاري عن أنس بن مالك رفع الحديث قال «المولود حتى يبلغ الحنث ما عمل من حسنة كتبت لوالده أو لوالديه ، وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه ، فاذا بلغ الحنث أجرى الله عليه القلم أمر الملكان اللذان كانا معه أن يحفظا وأن يشددا ، فإذا بلغ أربعين سنة في الإسلام أمنه الله من البلايا الثلاث : الجنون والجذام ، والبرص ؛ فإذا بلغ الخمسين ، خفف الله حسابه ، فإذا بلغ الستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب . فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء . فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته ، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، وشفعه في أهل بيته ، وكتب أمين الله وكان أسير الله في أرضه ، فإذا بلغ أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا كتب الله مثل ماكان يعمل في صحته من الخير ، فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه» .

هذا حديث غريب جدا ، وفيه نكارة شديدة ، ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده موقوفاً ومرفوعاً ، فقال : حدثنا ابو النضر ، حدثنا الفرج ، حدثنا محمد بن عامر عن محمد بن عبد الله العاملي ، عن عمرو بن جعفر عن

أنس قال : «إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة ، أمنه الله من أنواع البلايا : من الجنون ، والبرص ، والجذام ، فإذا بلغ الخمسين لين الله حسابه ، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه الله عليها ، واذا بلغ السبعين أحبه الله وأحبه أهل السماء ، وأذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته ومحا عن سيئاته وإذا بلغ التسعين غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر وسمي أسير الله في أرضه وشفع في أهله» ثم قال : حدثنا هشام ، حدثنا الفرج ، حدثني محمد بن عبد الله العامري عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ؛ عن النبي ﷺ مثله .

رواه الإمام أحمد أيضا : حدثنا أنس بن عياض ، حدثني يوسف بن أبي بردة الأنصاري عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال «مامن معمر يعمر في الاسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء : الجنون ، والبرص ، والجذام» وذكر تمام الحديث كما تقدم سواء ، رواه الحافظ أبو بكر البزاز عن عبد الله بن شبيب عن أبي شيبة عن عبد الله بن عبد الملك عن أبي قتادة العدوي ، عن ابن أخي الزهري عن عمه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ «مامن عبد يعمر في الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه أنواعا من البلاء : الجنون ، والجذام ، والبرص ؛ فإذا بلغ خمسين سنة لين الله له الحساب ، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه بما يحب ، فإذا بلغ سبعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وماتأخر ، وسمي أسير الله وأحبه أهل السماء ؛ فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته ، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، وسمي أسير الله في أرضه وشفع في أهل بيته» .

وقوله ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة ، وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء . وقال قتادة : غبراء متهشمة . وقال السدي : ميتة ، ﴿ فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أي فإذا أنزل الله عليها المطر ، اهتزت أي تحركت بالنبات ، وحييت بعد موتها ، وربت أى ارتفعت لما سكن فيها الثرى ، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أي حسن المنظر طيب الريح .

وقوله ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿ وأنه يحيي الموتى ﴾ أي كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ أي كائنة لا شك فيها ولا مرية ، ﴿ وأن الله يبعث من في القبور ﴾ أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمما ويوجدهم بعد العدم ، كما قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل شيء عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ والآيات في هذه كثيرة .

وقال الامام أحمد : حدثنا بهز ، حدثنا حماد بن سلمة قال : أنبأنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدي عن عمه أبي رزين العقيلي واسمه لقيط بن عامر انه قال : يا رسول الله أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة ، وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ « أليس كلكم ينظر إلى القمر مخليا به ؟ » قلنا : بلى ، قال « فالله أعظم » قال : قلت يارسول الله كيف يحيي الله الموتى ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال « أما مررت بوادي أهلك ممحلاً ؟ » قال : بلى . قال « ثم مررت به يهتز خضراً ؟ » قال : بلى . قال « فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آيته في خلقه » . ورواه أبو داود وابن ماجة من حديث حماد بن سلمة به .

ثم رواه الإمام أحمد أيضاً : حدثنا علي بن إسحاق ، أنبأنا ابن المبارك ، أنبأنا عبد الرحمن بن زيد بن جابر عن سليمان بن موسى عن أبي رزين العقيلي قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ قال « أمررت بأرض من أرض قومك مجدبة ، ثم مررت بها مخصبة ؟ » قال : نعم . قال « كذلك النشور » والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عيسى بن مرحوم ، حدثنا بكير بن السميط عن قتادة عن أبي الحجاج عن معاذ بن جبل قال : من علم أن الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، دخل الجنة .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقال ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ أي بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح ، بل بمجرد الرأي والهوى . وقوله ﴿ ثاني عطفه ﴾ قال ابن عباس وغيره : مستكبر عن الحق إذا دعي اليه ، وقال مجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم ﴿ ثاني عطفه ﴾ أي لاوي عطفه وهي رقبته ، يعني يعرض عما يدعى اليه من الحق ، ويثني رقبته استكباراً ، كقوله تعالى : ﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين فتولى بركنه ﴾ الآية ؛ وقال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ وقال لقمان لابنه ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ أي تميلة عنهم استكباراً عليهم ، وقال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً ﴾ الآية .

وقوله ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ قال بعضهم : هذه لام العاقبة ، لأنه قد لا يقصد ذلك ، ويحتمل أن تكون لام التعليل . ثم إما أن يكون المراد بها المعاندون أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الدنيء لنجعله ممن يضل عن سبيل الله . ثم قال تعالى : ﴿ له في الدنيا خزي ﴾ وهو الإهانة والذل ، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقاه الله المذلة في الدنيا وعاقبة فيها قبل الآخرة ، لأنها أكبر همه ومبلغ علمه ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق * ذلك بما قدمت يداك ﴾ أي يقال له هذا تقريعاً وتوبيخاً ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ كقوله تعالى : ﴿ خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم * إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن الصباح ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا هشام عن الحسن قال : بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرة .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾

قال مجاهد وقتادة وغيرهما ﴿ على حرف ﴾ على شك ؛ وقال غيرهم : على طرف ، ومنه حرف الجبل أي طرفه ، أي دخل في الدين على طرف فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر . وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن الحارث ، حدثنا يحيى بن أبي بكير ، حدثنا إسرائيل عن أبي الحصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ قال : كان الرجل يقدم المدينة فان ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثني أبي عن أبيه عن أشعث بن إسحاق القمي عن جعفر ابن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون ، فإذا رجعوا إلى بلادهم فان وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ، قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط ، قالوا : ما في ديننا هذا خير ، فأنزل الله على نبيه ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ﴾ الآية .

وقال العوفي عن ابن عباس : كان أحدهم إذا قدم المدينة وهم أرض دونه ، فان صح بها جسمه ونتجت فرسه مهراً حسناً وولدت امرأته غلاماً رضي به ، واطمأن اليه ، وقال : ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً ، ﴿وإن أصابته فتنة﴾ والفتنة البلاء ، أي وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة ، أتاه الشيطان فقال : والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً ، وذلك الفتنة ؛ وهكذا ذكر قتادة والضحاك وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة ، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه ، فان أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر . وقال مجاهد في قوله ﴿ انقلب على وجهه ﴾ أي ارتد كافراً .

وقوله ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ أي فلا هو حصل من الدنيا على شيء ، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم ، فهو فيها

في غاية الشقاء والاهانة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ أي هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة وقوله ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ﴾ أي من الأصنام والأنداد ، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ . وقوله ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ أي ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها ، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن . وقوله ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ قال مجاهد : يعني الوثن ، يعني بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى ، يعني ولياً وناصراً ، ﴿ وبئس العشير ﴾ وهو المخالط والمعاشر ، واختار ابن جرير أن المراد لبئس ابن العم والصاحب ﴿ من يعبد على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ﴾ وقول مجاهد إن المراد به الوثن أولى وأقرب إلى سياق الكلام ، والله أعلم .

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا إيمانهم بأفعالهم ، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات ، وتركوا النكرات ، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات ، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ .

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

قال ابن عباس : من كان يظن ان لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب أي بحبل ﴿ إلى السماء ﴾ أي سماء بيته ﴿ ثم ليقطع ﴾ يقول ثم ليختنق به ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ أي ليتوصل إلى بلوغ السماء ، فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء ﴿ ثم ليقطع ﴾ ذلك عنه إن قدر على ذلك ، وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم ، فإن المعنى من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه ، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه ، فإن الله ناصره لا محالة ، قال الله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ الآية ؛ ولهذا قال ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ قال السدي : يعني من شأن محمد ﷺ . وقال عطاء الخراساني : فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ . وقوله ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أي القرآن ﴿ آيات بينات ﴾ أي واضحات في لفظها ومعناها ، حجة من الله على الناس ، ﴿ وأن الله يهدي من يريد ﴾ أي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ أما هو فلحكمته ورحمته وعدله وعلمه وقهره وعظمته لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ومن سواهم من اليهود والصابئين ، وقد قدمنا في سورة البقرة التعريف بهم واختلاف الناس فيهم ، والنصارى والمجوس والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره ، فإنه تعالى : ﴿ يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ ويحكم بينهم بالعدل ، فيدخل من آمن به الجنة ، ومن كفر به النار ، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم ، حفيظ لأقوالهم ، عليم بسرائرهم وما تكن ضمائرهم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً ، وسجود كل شيء مما يختص به ، كما قال تعالى : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ﴾ وقال ههنا ﴿ ألم ترَ أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض ﴾ أي من الملائكة في أقطار السموات ، والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطير ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ ـ وقوله ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص ، لأنها قد عبدت من دون الله فبين انها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ الآية ؛ وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال لي : قال رسول الله ﷺ « أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت » وفي المسند وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجة في حديث الكسوف « إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله ، وإنهما لا ينكسفان لموت احد ولا لحياته ، ولكن الله عز وجل إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له » .

وقال أبو العالية : ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجداً حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه ؛ واما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالها عن اليمين والشمائل ؛ وعن ابن عباس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدت ، فسجدت الشجرة لسجودي ، فسمعتها وهي تقول : اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ، وضع عني بها وزراً ، واجعلها لي عندك ذخراً ، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود ؛ قال ابن عباس : فقرأ رسول الله ﷺ سجدة ثم سجد ، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة ، رواه الترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه .

وقوله ﴿ والدواب ﴾ أي الحيوانات كلها ، وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ ، نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر ، فرب مركوبة خير أو أكثر ذكراً لله تعالى من راكبها . وقوله ﴿ وكثير من الناس ﴾ اي يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ أي ممن امتنع وأبى واستكبر ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن شيبان الرملي ، حدثنا القداح عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي قال : قيل لعلي : إن ههنا رجلا يتكلم في المشيئة ، فقال له علي : يا عبد الله خلقك الله كما يشاء أو كما شئت ؟ قال : بل كما شاء . قال : فيمرضك إذ شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء . قال : فيشفيك إذا شاء أو اذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء . قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء ؟ قال : بل حيث يشاء . قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي ، يقول : يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار » رواه مسلم . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم وأبو عبد الرحمن المقري قالا : حدثنا ابن لهيعة ، قال : حدثنا مشرح بن هاعان أبو مصعب المعافري قال : سمعت عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين ؟ قال « نعم فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما » ورواه أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن لهيعة به . وقال الترمذي : ليس بقوي ، وفي هذا نظر ، فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع ، وأكثر ما نقموا عليه تدليسه .

وقد قال أبو داود في المراسيل : حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني معاوية بن صالح عن عامر بن جشب عن خالد بن معدان رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال «فضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين » ثم قال أبو داود : وقد أسند هذا ، يعني من غير هذا الوجه ولا يصح . وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي : حدثني ابن أبي داود ، حدثنا يزيد بن عبد الله ، حدثنا الوليد ، حدثنا أبو عمرو ، حدثنا حفص بن غياث ، حدثني نافع قال : حدثني أبو الجهم أن عمر سجد سجدتين في الحج وهو بالجابية ، وقال : إن هذه فضلت بسجدتين . وروى أبو داود وابن ماجة من حديث الحارث بن سعيد العتقي عن عبد الله بن منين عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ ، أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن ، منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان ، فهذه شواهد يشد بعضها بعضاً .

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ

أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

ثبت في الصحيحين من حديث أبي مجلز عن قيس بن عباد عن أبي ذر أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه ، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر ، لفظ البخاري عند تفسيرها ، ثم قال البخاري : حدثنا حجاج بن المنهال ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، سمعت أبي ، حدثنا أبو مجلز عن قيس بن عباد عن علي بن أبي طالب أنه قال : أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة ، قال قيس : وفيهم نزلت ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ قال هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة . انفرد به البخاري .

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ قال : اختصم المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ؛ وقال المسلمون : كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء ، فنحن أولى بالله منكم ، فأفلج الله الإسلام على من ناواه ، وأنزل ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ وكذا روى العوفي عن ابن عباس : وقال شعبة عن قتادة في قوله ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ قال : مصدق ومكذب وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في هذه الآية : مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث ؛ وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية : هم المؤمنون والكافرون .

وقال عكرمة ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ قال : هي الجنة والنار ، قالت النار : اجعلني للعقوبة ، وقالت الجنة : اجعلني للرحمة . وقول مجاهد وعطاء : إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها ، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل ، وهذا اختيار ابن جرير ، وهو حسن ، ولهذا قال ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ أي فصلت لهم مقطعات من النار ، قال سعيد بن جبير : من نحاس ، وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾ أي إذا صب على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة . وقال سعيد بن جبير : هو النحاس المذاب ، أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد ابن جبير وغيرهم ، وكذلك تذوب جلودهم ، وقال ابن عباس وسعيد : تساقط .

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن المثنى ، حدثني إبراهيم أبو إسحاق الطالقاني ، حدثنا ابن المبارك عن سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن ابن حجيرة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلب ما في جوفه حتى يبلغ قدميه ، وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان » ورواه الترمذي من حديث ابن المبارك وقال : حسن صحيح ؛ وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أبي نعيم عن ابن المبارك به . ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمدلابن أبي الحواري .

قال : سمعت عبد الله بن السري قال : يأتيه الملك بكلبتين من حرارته ، فإذا أدناه من وجهه تكرهه ، قال : فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه فيفرغ دماغه ، ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه ، فذلك قوله ﴿يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ .

وقوله ﴿ولهم مقامع من حديد﴾ قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال «لو أن مقمعاً من حديد وضع في الأرض ، فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض» وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ «لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ، ثم عاد كما كان ، ولو أن دلواً من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا» وقال ابن عباس في قوله ﴿ولهم مقامع من حديد﴾ قال : يضربون بها ، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور .

وقوله ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ قال الأعمش عن أبي ظبيان عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها ، ثم قرأ ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ وقال زيد بن أسلم في هذه الآية ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ قال : بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون ، وقال الفضيل بن عياض : والله ما طمعوا في الخروج ، إن الأرجل لمقيدة وإن الأيدي لموثقة ، ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها . وقوله

﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ كقوله ﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً .

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار عياذاً بالله من حالهم وما هم فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال وما أعد لهم من الثياب من النار ، ذكر حال أهل الجنة نسأل الله من فضله وكرمه ، فقال ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تتحرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها وتحت أشجارها وقصورها ، يصرفونها حيث شاءوا وأين أرادوا ﴿يحلون فيها﴾ من الحلية ﴿من أساور من ذهب ولؤلؤاً﴾ أي في أيديهم ، كما قاله النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» . وقال كعب الأحبار : إن في الجنة ملكاً لو شئت أن أسميه لسميته صوغ لأهل الجنة الحلى منذ خلقه الله إلى يوم القيامة لو أبرز قلب منها - أي سوار منها - لرد شعاع الشمس كما ترد الشمس نور القمر .

وقوله ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم ، لباس هؤلاء من الحرير استبرقه وسندسه ، كما قال ﴿عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً﴾ وفي الصحيح «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا ، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» قال عبد الله بن الزبير : من لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة ، قال الله تعالى : ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ . وقوله ﴿وهدوا إلى الطيب من القول﴾ كقوله تعالى : ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام﴾ وقوله ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ وقوله ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾ فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب ، وقوله ﴿ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾ لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون به ويقرعون به يقال لهم ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ . وقوله ﴿وهدوا إلى صراط الحميد﴾ إي إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأنعم به واسداه إليهم كما جاء في الحديث الصحيح ﴿إنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس﴾ وقد قال بعض المفسرين في قوله ﴿وهدوا إلى الطيب من القول﴾ أي القرآن وقيل لا إله إلا الله وقيل الأذكار المشروعة ﴿وهدوا إلى صراط الحميد﴾ أي الطريق المستقيم في الدنيا وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه والله أعلم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى منكراً على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه ودعواهم أنهم أولياؤه ﴿وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون﴾ الآية ؛ وفي هذه الآية دليل على أنها مدنية ، كما قال في سورة البقرة ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله﴾ وقال ههنا ﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام﴾ أي ومن صفتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ، أي ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر ، وهذا الترتيب في هذه الآية كقوله تعالى : ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله .

وقوله ﴿الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد﴾ أي يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام ، وقد جعله الله شرعاً سواء لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها ، كما قا ل علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ قال :

ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام . وقال مجاهد ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل ؛ وكذا قال أبو صالح وعبد الرحمن بن سابط وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : سواء فيه أهله وغير أهله ، وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف ، وأحمد بن حنبل حاضراً أيضاً ، فذهب الشافعي رحمه الله إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر ، واحتج بحديث الزهر عن علي بن الحسن عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد قال : قلت يا رسول الله أتنزل غداً في دارك بمكة ؟ فقال «وهل ترك لنا عقيل من رباع ؟» ثم قال «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ، وبما ثبت أن عمر ابن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة ، فجعلها سجناً ، بأربعة آلاف درهم ، وبه قال طاوس وعمرو بن دينار ، وذهب إسحاق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تؤجر ، وهو مذهب طائفة من السلف ، ونص عليه مجاهد وعطاء ، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عيسى بن يونس عن عمر بن سعيد بن أبي حيوة ، عن عثمان بن أبي سليمان عن علقمة بن نضلة قال : توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعي رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن من استغنى أسكن .

وقال عبد الرزاق عن مجاهد عن أبيه عن عبد الله بن عمرو أنه قال : لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها ؛ وقال أيضاً عن ابن جريج : كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم ، واخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج في عرصاتها ، فكان أول من بوب داره سهيل بن عمرو ، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك ، فقال : أنظرني يا أمير المؤمنين إني كنت امرأ تاجراً ، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لي ظهري ، قال : فلك ذلك إذاً . وقال عبد الرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال : يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء ، قال : وأخبرنا معمر عمن سمع عطاء يقول ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ قال : ينزلون حيث شاءوا ، وروى الدارقطني من حديث ابن أبي نجيح عن عبد الله بن عمرو موقوفاً «من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً» وتوسط الإمام أحمد فقال : تملك وتورث ولا تؤجر جمعاً بين الأدلة ، والله أعلم . وقوله ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ قال بعض المفسرين من أهل العربية : الباء ههنا زائدة ، كقوله ﴿تنبت بالدهن﴾ أي تنبت الدهن ، وكذا قوله ﴿ومن يرد فيه بالحاد﴾ تقديره إلحاداً ، وكما قال الأعشى .

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا بين المراجل والصريح الأجرد

وقال الآخر :

بواد يمان ينبت الشث صدره وأسفله بالمرخ والشبهان

والأجود أنه ضمن الفعل ههنا معنى يهم ، ولهذا عداه بالباء فقال ﴿ومن يرد فيه بالحاد﴾ أي يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار : وقوله ﴿بظلم﴾ أي عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول ، كما قال ابن جريج عن ابن عباس هو التعمد . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : بظلم بشرك ، وقال مجاهد : أن يعبد فيه غير الله ، وكذا قال قتادة وغير واحد . وقال العوفي عن ابن عباس : بظلم هو أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة أو قتل ، فتظلم من لا يظلمك وتقتل من لا يقتلك ، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم ، وقال مجاهد : بظلم يعمل فيه عملاً سيئا ، وهذا من خصوصية الحرم انه يعاقب البادي فيه الشر إذا كان عازماً عليه وإن لم يوقعه ، كما قال ابن أبي حاتم في تفسيره ، حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا شعبة عن السدي أنه سمع مرة يحدث عن عبد الله يعني ابن مسعود في قوله ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ قال : لو أن رجلاً أراد فيه بالحاد بظلم وهو بعدن أبين ، لأذاقه الله من العذاب الأليم ، قال شعبة ؛ هو رفعه لنا وأنا لا أرفعه لكم . قال يزيد : هو قد رفعه ، ورواه أحمد عن يزيد بن هارون به ؛ قلت : هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري ، ووقفه أشبه من رفعه ، ولهذا صمم شعبة على وقفه من كلام ابن مسعود ، وكذلك رواه اسباط وسفيان الثوري عن السدي ، عن مرة ، عن ابن مسعود موقوفاً ، والله أعلم . وقال الثوري عن السدي عن مرة عن عبد الله قال ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه ، ولو أن رجلاً بعدن أبين همَّ أن يقتل رجلاً بهذا البيت لأذاقه الله من العذاب الأليم ؛ وكذا قال الضحاك بن مزاحم ، وقا ل سفيان الثوري عن منصور ، عن مجاهد : الحاد فيه لا والله وبلى والله ؛ وروي عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو مثله ؛ وقال سعيد بن جبير : شتم الخادم ظلم فما فوقه ، وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن عطاء ، عن ميمون بن مهران ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ قال : تجارة الأمير فيه . وعن ابن عمر : بيع الطعام بمكة إلحاد .

وقال حبيب بن أبي ثابت ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ قال : المحتكر بمكة ؛ وكذا قال غير واحد . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهري ، أنبأنا أبو عاصم عن جعفر بن يحيى ، عن عمه عمارة بن ثوبان ، حدثني موسى بن باذان عن يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ قال «احتكار الطعام بمكة إلحاد» وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا عطاء بن دينار ، حدثني سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس في قول الله ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ قال : نزلت في عبد الله بن أنيس ، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين : أحدهما مهاجر ، والآخر من الأنصار ، فافتخروا في الأنساب فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري ، ثم ارتد عن الاسلام ، ثم هرب الى مكة ، فنزلت فيه ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ يعني من لجأ إلى الحرم بإلحاد ، يعني بميل عن الاسلام ، وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد ، ولكن هو أعم من ذلك بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها ، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ، أي دمرهم وجعلهم عبرة ونكالاً لكل من أراده بسوء ، ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال «يغزو هذا البيت جيش حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم» الحديث .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن كناسة ، حدثنا إسحاق بن سعيد عن أبيه قال : أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير فقال : يا ابن الزبير إياك والإلحاد في حرم الله ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «إنه سيلحد فيه رجل من قريش ، لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت» فانظر لا تكن هو ؛ وقال أيضاً في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص : حدثنا هاشم ، حدثنا إسحاق بن سعيد ، حدثنا سعيد بن عمرو قال : أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير وهو جالس في الحجر فقال : يا ابن الزبير ، إياك والإلحاد في الحرم ، فاني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول «يحلها ويحل به رجل من قريش ، لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها» قال : فانظر لا تكن هو ، لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين .

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت ، أي أرشده إليه وسلمه له وأذن له في بنائه ؛ واستدل به كثير ممن قال إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق ، وأنه لم يبن قبله ؛ كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر ، قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال «المسجد الحرام» . قلت : ثم أي ؟ قال «بيت المقدس» . قلت : كم بينهما ؟ قال «أربعون سنة» . وقد قال الله تعالى ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً﴾ الآيتين ؛ وقال تعالى : ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع والسجود﴾ وقد قدمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح والآثار بما أغنى عن اعادته ههنا ، وقال تعالى ههنا ﴿أن لا تشرك بي شيئاً﴾ أي ابنه على اسمي وحدي ﴿وطهر بيتي﴾ قال قتادة ومجاهد : من الشرك ﴿للطائفين والقائمين والركع والسجود﴾ أي : اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطائف به معروف ، وهو أخص العبادات عند البيت ، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿والقائمين﴾ أي في الصلاة ، ولهذا قال ﴿والركع السجود﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت ، فالطواف عنده والصلاة إليه في غالب الأحوال ، إلا ما استثني من الصلاة عند اشتباه القبلة وفي الحرب وفي النافلة في السفر ، والله أعلم .

وقوله ﴿وأذن في الناس بالحج﴾ أي ناد في الناس بالحج ، داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه ، فذكر أنه قال : يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم ؟ فقال : ناد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه ، وقيل على الحجر ، وقيل على الصفا ، وقيل على ابي قبيس ، وقال : يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه ، فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع من في الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة ، لبيك اللهم لبيك ؛ وهذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف ، والله أعلم ، وأوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة .

وقوله ﴿يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر﴾ الآية ، قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً ، لأنه قدمهم في الذكر ، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم ، وقال وكيع عن أبي العميس ، عن أبي حلحلة ، عن محمد بن كعب ، عن ابن عباس قال : ما أساء علي شيء إلا إني وددت أني كنت حججت ماشياً ، لأن الله يقول ﴿يأتوك رجالاً﴾ والذي عليه الأكثرون أن الحج راكباً أفضل ، اقتداء برسول الله ﷺ فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه السلام . وقوله ﴿يأتين من كل فج﴾ يعني طريق ، كما قال ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾ وقوله ﴿عميق﴾ أي بعيد ، قاله مجاهد وعطاء والسدي وقتادة ومقاتل بن حيان والثوري وغير واحد ؛ وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم حيث قال في دعائه ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف ، والناس سيقصدونها من سائر الجهات والأقطار .

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

قال ابن عباس : ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ قال : منافع الدنيا والآخرة ، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن ، والذبائح والتجارات ، وكذا قال مجاهد وغير واحد : إنها منافع الدنيا والآخرة ، كقوله : ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ . وقوله ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ ، قال شعبة وهشيم عن أبي بشر ، عن سعيد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : الأيام المعلومات أيام العشر ، وعلقه البخاري عنه بصيغة الجزم به . وروي مثله عن أبي موسى الأشعري ومجاهد وقتادة وعطاء وسعيد بن جبير والحسن والضحاك وعطاء الخراساني وإبراهيم النخعي ، وهو مذهب الشافعي والمشهور عن أحمد بن حنبل .

وقال البخاري : حدثنا محمد بن عرعرة ، حدثنا شعبة عن سليمان ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء» ؛ رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة بنحوه . وقال الترمذي : حديث حسن ، غريب ، صحيح ؛ وفي الباب عن ابن عمر وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر ؛ قلت : وقد تقصيت هذه الطرق ، وأفردت لها جزءاً على حدة ؛ فمن ذلك ما قال الإمام أحمد : حدثنا عثمان أنبأنا أبو عوانة عن يزيد بن أبي زياد عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد» وروي من وجه آخر عن مجاهد عن ابن عمر بنحوه . وقال البخاري : وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما .

وقد روى أحمد عن جابر مرفوعاً أن هذا هو العشر الذي أقسم به في قوله ﴿والفجر وليال عشر﴾ . وقال بعض السلف : أنه المراد بقوله ﴿وأتممناها بعشر﴾ وفي سنن أبي داود ان رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر ، وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في صحيح مسلم عن أبي قتادة قال : سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة ؛ فقال : احتسب على الله أن يكفر به السنة الماضية والآتية ، ويشتمل على يو م النحر الذي هو يوم الحج الأكبر ، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله وبالجملة ، فهذا العشر قد قيل انه أفضل أيام السنة ، كما نطق به الحديث ، وفضله كثير على عشر رمضان الأخير ، لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيره ، ويمتاز هذا باختصاصه باداء فرض الحج فيه . وقيل ذلك أفضل لاشتماله على ليلة القدر التي خير من ألف شهر ، وتوسط آخرون فقالوا : ايام هذا أفضل ؛ وليالي ذاك أفضل ، وبهذا يجتمع شمل الأدلة ، والله أعلم .

[قول ثان] في الأيام المعلومات . قال الحكم عن مقسم عن ابن عباس : الايام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده ؛ ويروى هذا عن ابن عمر وإبراهيم النخعي ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل في روايته عنه .

[قول ثالث] قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن المديني ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا ابن عجلان ، حدثني نافع ان ابن عمر كان يقول : الأيام المعلومات المعدودات (هن جميعهن اربعة أيام ، فالأيام المعلومات :)

يوم النحر ، ويومان بعده ، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، هذا إسناد صحيح إليه ، وقال السدي ، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس ، ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالى : ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ يعني ذكر الله عند ذبحها .

[قول رابع] انها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده ، وهو مذهب أبو حنيفة . وقال ابن وهب : حدثني ابن زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال : المعلومات يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق .

وقوله ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ يعني الإبل والبقر والغنم كما فصلها تعالى في سورة الأنعام ﴿ثمانية أزواج﴾ الآية ؛ وقوله ﴿فكلوا منها واطعموا البائس الفقير﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الاضاحي ، وهو قول غريب ؛ والذي عليه الأكثرون انه من باب الرخصة أو الاستحباب ؛ كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه امر من كل بدنة ببضعة فتطبخ ، فأكل من لحمها وحسا من مرقها . قال عبد الله بن وهب : قال لي مالك : أحب أن يأكل من أضحيته ، لأن الله يقول ﴿فكلوا منها﴾ قال ابن وهب : وسألت الليث ، فقال لي مثل ذلك ؛ وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم ﴿فكلوا منها﴾ قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين ، فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل ، وروي عن مجاهد وعطاء نحو ذلك .

قال هشيم عن حصين عن مجاهد في قوله ﴿فكلوا منها﴾ قال : هي كقوله ﴿فإذ حللتم فاصطادوا﴾ ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره ، واستدل من نصر القول بأن الأضاحي يتصدق فيها بالنصف بقوله في هذه الآية ﴿فكلوا منها واطعموا البائس الفقير﴾ فجزأها نصفين : نصف للمضحي ونصف للفقراء ، والقول الآخر انها تجزأ ثلاثة أجزاء : ثلث له وثلث يهديه وثلث يتصدق به ، لقوله تعالى في الآية الأخرى ﴿فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر﴾ وسيأتي الكلام عليها عندها ان شاء الله وبه الثقة .

وقوله ﴿البائس الفقير﴾ قال عكرمة : هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس وهو الفقير المتعفف ؛ وقال مجاهد : هو الذي لا يبسط يده ، وقال قتادة : هو الزمن ، وقال مقاتل بن حيان : هو الضرير . وقوله ﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس : هو وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ونحو ذلك ؛ وهكذا روى عطاء ومجاهد عنه ، وكذا قال عكرمة ومحمد بن كعب القرظي . وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾ قال : التفث المناسك . وقوله ﴿وليوفوا نذورهم﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني نحر ما نذر من امر البدن . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿وليوفوا نذورهم﴾ الحج والهدى وما نذر الانسان من شيء يكون في الحج . وقال إبراهيم ابن ميسرة عن مجاهد ﴿وليوفوا نذورهم﴾ قال : الذبائح . وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد ﴿وليوفوانذورهم﴾ كل نذر إلى أجل وقال عكرمة ﴿وليوفوا نذورهم﴾ قال : حجهم . وكذا روى الإمام أحمد وابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان في قوله ﴿وليوفوا نذورهم﴾ قال : نذور الحج ، فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة وعرفة والمزدلفة ورمي الجمار على ما أمروا به ، وروي عن مالك نحو هذا .

وقوله ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ قال مجاهد : يعني الطواف الواجب يوم النحر ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد عن أبي حمزة قال : قال لي ابن عباس : أتقرأ سورة الحج يقول الله تعالى : ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق ، قلت : وهكذا صنع رسول الله ﷺ فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمي الجمرة ، فرماها بسبع حصيات ، ثم نحر هديه وحلق رأسه ، ثم أفاض فطاف بالبيت ، وفي الصحيحين عن ابن عباس انه قال : أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف إلا أنه خفف عن المرأة الحائض .

وقوله ﴿بالبيت العتيق﴾ فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر ، لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم ، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصرت بهم النفقة ، ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر وأخبر أن الحجر من البيت ولم يستلم الركنين الشاميين لأنهما لم يتما على قواعد ابراهيم العتيقة ؛ ولهذا قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر العدني ، حدثنا سفيان عن هشام بن حجر عن رجل عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ طاف رسول الله ﷺ من ورائه ، وقال قتادة عن الحسن البصري في قوله ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ قال : لأنه أول بيت وضع للناس ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وعن عكرمة انه قال : إنما سمي البيت العتيق لأنه اعتق يوم الغرق زمان نوح ، وقال خصيف ، إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار قط .

وقال ابن نجيح وليث عن مجاهد : أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه ؛ وكذا قال قتادة . وقال حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن بن مسلم عن مجاهد : لأنه لم يرده أحد بسوء الا هلك . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن ابن

الزبير قال : إنما سمي البيت العتيق لأن الله اعتقه من الجبابرة . وقال الترمذي : حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد ، حدثنا عبد الله بن صالح ، اخبرني الليث عن عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن محمد بن عروة عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ «إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار» وكذا رواه ابن جرير عن محمد بن سهل المحاربي عن عبد الله بن صالح به ، وقال : إن كان صحيحاً ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، ثم رواه من وجه آخر عن الزهري مرسلا .

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

يقول تعالى : هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما يلقى عليها من الثواب الجزيل ﴿ومن يعظم حرمات الله﴾ أي ومن يجتنب معاصيه ، ومحارمه ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه ﴿فهو خير له عند ربه﴾ أي فله على ذلك خير كثير ، وثواب جزيل ، فكما على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل ، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات . قال ابن جريج : قال مجاهد في قوله : ﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله﴾ قال : الحرمة مكة والحج والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها ، وكذا قال ابن زيد .

وقوله ﴿وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾ أي أحللنا لكم جميع الأنعام وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . وقوله ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ أي من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة الآية ؛ قال ذلك ابن جرير ، وحكاه عن قتادة . وقوله ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ من ههنا لبيان الجنس ، أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان ، وقرن الشرك بالله بقول الزور ، كقوله ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ ومنه شهادة الزور . وفي الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟» قلنا : بلى يا رسول الله قال «الإشراك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان متكئاً فجلس فقال ـ ألا وقول الزور . ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

وقال الإمام أحمد : حدثنا مروان بن معاوية الفزاري ، أنبأنا سفيان بن زياد عن فاتك بن فضالة عن أيمن بن خريم قال : قام رسول الله ﷺ خطيباً ، فقال «يا أيها الناس عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله» ثلاثا ، ثم قرأ ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ وهكذا رواه الترمذي عن أحمد بن منيع عن مروان بن معاوية به ، ثم قال : غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد ، وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ ، وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا سفيان العصفري عن أبيه عن حبيب بن النعمان الأسدي عن خريم بن فاتك الأسدي قال : صلى رسول الله ﷺ الصبح ، فلما انصرف قام قائماً فقال «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عز وجل» ثم تلا هذه الآية ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به﴾ وقال سفيان الثوري عن عاصم بن أبي النجود عن وائل بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال : تعدل شهادة الزور الإشراك بالله ، ثم قرأ هذه الآية .

وقوله ﴿حنفاء لله﴾ أي مخلصين له الدين منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحق ، ولهذا قال ﴿غير مشركين به﴾ ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى ، فقال ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء﴾ أي سقط منها ﴿فتخطفه الطير﴾ أي تقطعه الطيور في الهواء ﴿أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ أي بعيد مهلك لمن هوى فيه ، ولهذا جاء في حديث البراء : أن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه الى السماء ، فلا تفتح له أبواب السماء بل تطرح روحه طرحاً من هناك ، ثم قرأ هذه الآية ، وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم بحروفه وألفاظه وطرقه . وقد ضرب تعالى للمشركين مثلاً آخر في سورة الأنعام . وهو قوله ﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى﴾ الآية .

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى هذا ﴿ومن يعظم شعائر الله﴾ أي أوامره ﴿فإنها من تقوى القلوب﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن ، كما قال الحكم عن مقسم عن ابن عباس : تعظيمها استسمانها واستحسانها . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا حفص بن غياث عن ابن أبي ليلى عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد عن ابن عباس ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله﴾ قال : الاستسمان والاستحسان والاستعظام . وقال أبو أمامة عن سهل : كنا نسمن الأضحية بالمدينة ، وكان المسلمون يسمنون ؛ رواه البخاري ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «دم عفراء أحب إلى الله من دم سوداوين» رواه أحمد وابن ماجة ، قالوا : والعفراء هي البيضاء بياضاً ليس بناصع ، فالبيضاء أفضل من غيرها ، وغيرها يجزيء أيضاً لما ثبت في صحيح البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين املحين اقرنين ؛ وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن كحيل ، يأكل في سواد ، وينظر في سواد ، ويمشي في سواد ، رواه أهل السنن وصححه الترمذي - أي فيه نكتة سوداء في هذه الأماكن .

وفي سنن ابن ماجة عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين ؛ وكذا روى أبو داود وابن ماجة عن جابر : ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أقرنين املحين موجوءين . قيل : هما الخصيان ، وقيل اللذان رض خصياهما ولم يقطعهما ، والله أعلم . وعن علي رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن ، وأن لا نضحي بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء ، رواه أحمد وأهل السنن ، وصححه الترمذي ولهم عنه ، قال : نهى رسول الله ﷺ أن نضحي بأعضب القرن والأذن ، سعيد بن المسيب : العضب النصف فأكثر ، وقال بعض أهل اللغة : إن كسر قرنها الأعلى فهي قصماء ، فأما العضب فهو كسر الأسفل ، وعضب الأذن قطع بعضها . وعند الشافعي أن الأضحية بذلك مجزئة لكن تكره . وقال أحمد : لا تجزيء الأضحية بأعضب القرن والأذن لهذا الحديث . وقال مالك : إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزيء والا أجزأ ، والله أعلم .

وأما المقابلة فهي التي قطع مقدم أذنها ، والمدابرة من مؤخر أذنها ، والشرقاء هي التي قطعت أذنها طولاً ؛ قاله الشافعي والأصمعي ، واما الخرقاء فهي التي خرقت السمة أذنها خرقاً مدورا ، والله أعلم . وعن البراء قال : قال رسول الله ﷺ «أربع لا تجوز في الأضاحي : العوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعرجاء البين ضلعها ، والكسيرة التي لا تنقي» رواه أحمد وأهل السنن ، وصححه الترمذي ، وهذه العيوب تنقص اللحم لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي ، لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى ، فلهذا لا تجزيء التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة ، كما هو ظاهر الحديث ، واختلف قول الشافعي في المريضة مرضا يسيراً على قولين ، وروى أبو داود عن عتبة بن عبد السلمي أن رسول الله ﷺ نهى عن المصفرة والمستأصلة والبخقاء والمشيعة والكسيرة ، فالمصفرة قيل الهزيلة ، وقيل المستأصلة الأذن ، والمستأصلة مكسورة القرن ، والبخقاء هي العوراء ، والمشيعة هي التي لا تزال تشيع خلف الغنم ولا تتبع لضعفها ، والكسيرة العرجاء ، فهذه العيوب كلها مانعة من الإجزاء ، فإما أن طرأ العيب بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عند الشافعي خلافاً لأبي حنيفة ؛ وقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : اشتريت كبشاً أضحي به ، فعدا الذئب فأخذ الألية ، فسألت النبي ﷺ فقال «ضح به» ولهذا جاء في الحديث أمرنا النبي ﷺ أن نستشرف العين والأذن ؛ أي أن تكون الهدية أو الأضحية سمينة حسنة ثمينة ، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال : أهدى عمر نجيباً فأعطي بها ثلثمائة دينار ، فأتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله اني أهديت نجيبا فأعطيت بها ثلثمائة دينار ، أفابيعها وأشتري بثمنها بدنا ؟ قال : لا «انحرها إياها» وقال الضحاك عن ابن عباس البدن من شعائر الله . وقال محمد ابن أبي موسى : الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والحلق والبدن من شعائر الله . وقال ابن عمر : أعظم الشعائر البيت .

وقوله ﴿لكم فيها منافع﴾ أي لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى . قال مقسم عن ابن عباس في قوله ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ قال : ما لم تسم بدنا . وقال مجاهد في قوله ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ قال : الركوب واللبن والولد ، فإذا سميت بدنة أو هديا ذهب ذلك كله ؛ وكذا قال عطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراساني وغيرهم . وقال آخرون : بل له أن ينتفع بها وإن كانت هديا إذا احتاج إلى ذلك ؛ كما

ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال «اركبها» قال : انها بدنة . قال «اركبها ويحك» في الثانية أو الثالثة . وفي رواية لمسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال «اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها» وقال شعبة عن زهير عن أبي ثابت الأعمى عن المغيرة بن أبي الحر عن علي أنه رأى رجلاً يسوق بدنة ومعه ولدها فقال : لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها ، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها .

وقوله ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ أي محل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق ، وهو الكعبة ، كما قال تعالى : ﴿هديا بالغ الكعبة﴾ وقال ﴿والهدي معكوفاً أن يبلغ محله﴾ وقد تقدم الكلام على معنى البيت العتيق قريباً ، ولله الحمد . وقال ابن جريج عن عطاء قال : كان ابن عباس يقول : كل من طاف بالبيت فقد حل ، قال الله تعالى : ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك واراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل . وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ولكل امة جعلنا منسكاً﴾ قال : عيداً . وقال عكرمة : ذبحاً . وقال زيد بن أسلم في قوله ﴿ولكل امة جعلنا منسكاً﴾ انها مكة ، لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها . وقوله ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال : أتى رسول الله ﷺ بكبشين املحين أقرنين ، فسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما . وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا يزيد بن هارون وأنبأنا سلام بن مسكين عن عائذ الله المجاشعي عن أبي داود ـ وهو نفيع بن الحارث ـ عن زيد بن أرقم : قلت أو قالوا : يا رسول الله ما هذه الأضاحي ؟ قال «سنة أبيكم إبراهيم» قالوا : ما لنا منها ؟ قال «بكل شعرة حسنة قال فالصوف ؟ قال «بكل شعرة من الصوف حسنة» وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة في سننه من حديث سلام بن مسكين به .

وقوله ﴿فإلهكم إله واحد فله أسلموا﴾ أي معبودكم واحد وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً ، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ ولهذا قال ﴿فله أسلموا﴾ أي أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿وبشر المخبتين﴾ قال مجاهد : المطمئنين . وقال الضحاك وقتادة : المتواضعين . وقال السدي : الوجلين . وقال عمرو بن أوس : المخبتين الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا . وقال الثوري ﴿وبشر المخبتين﴾ قال : المطمئنين الراضين بقضاء الله المستسلمين له ، وأحسن مما يفسر بما يعده وهو قوله ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي خافت منه قلوبهم ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ أي من المصائب . قال الحسن البصري : والله لنصبرن أو لنهلكن ﴿والمقيمى الصلاة﴾ قرأ الجمهور بالإضافة السبعة وبقية العشرة أيضاً وقرأ ابن السميفع ﴿والمقيمين الصلاة﴾ بالنصب . وعن الحسن البصري ﴿والمقيمي الصلاة﴾ وإنما حذفت النون ههنا تخفيفاً ، ولو حذفت للاضافة لوجب خفض الصلاة ولكن على سبيل التخفيف ، فنصبت ، أي المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم ، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله ، وهذه بخلاف صفات المنافقين ، فإنهم بالعكس من هذا كله كما تقدم تفسيره في سورة براءة .

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى ممتنا على عبيده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره ، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام ، بل

هي أفضل ما يهدى اليه ، كما قال تعالى : ﴿لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام﴾ الآية ؛ قال ابن جريج ؛ قال عطاء في قوله ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾ قال : البقرة والبعير ؛ وكذا روي عن ابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصري ، وقال مجاهد : وإنما البدن من الإبل ﴿قلت﴾ اما اطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه ، واختلفوا في صحة اطلاق البدنة على البقرة على قولين ، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح الحديث ، ثم جمهور العلماء على أنه تجزىء البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة ، كما ثبت به الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة . وقال إسحاق بن راهويه وغيره : بل تجزىء البقرة والبعير عن عشرة ، وقد ورد به حديث في مسند الإمام أحمد وسنن النسائي وغيرهما ، فالله أعلم .

وقوله ﴿لكم فيها خير﴾ أي ثواب في الدار الآخرة ، وعن سليمان بن يزيد الكعبي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال «ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً احب إلى الله من إهراق دم ، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض ، فطيبوا بها نفساً» رواه ابن ماجة والترمذي وحسنه . وقال سفيان الثوري : كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن ، فقيل له : تستدين وتسوق البدن ؟ فقال : إني سمعت الله يقول ﴿لكم فيها خير﴾ . وعن ابن عباس : قال رسول الله ﷺ «ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد» رواه الدارقطني في سننه . وقال مجاهد ﴿لكم فيها خير﴾ قال : أجر ومنافع ، وقال إبراهيم النخعي : يركبها ويحلبها إذا احتاج اليها .

وقوله ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾ وعن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن جابر بن عبد الله قال : صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى ، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه ، فقال «باسم الله والله اكبر ، اللهم هذا عني وعمن لم يضح من أمتي» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب عن ابن عباس عن جابر قال : ضحى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد ، فقال حين وجههما «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك امرت وأنا أول المسلمين ، اللهم منك ولك عن محمد وأمته» ثم سمى الله وكبر وذبح . وعن علي بن الحسين عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ كان اذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين فإذا صلى وخطب الناس ، أتي بأحدهما وهو قائم في مصلاه ، فذبحه بنفسه المدية ، ثم يقول «اللهم هذا عن أمتي جميعها : من شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ» ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ، ثم يقول «هذا عن محمد وآل محمد» فيطعمها جميعاً للمساكين ويأكل هو وأهله منها ، رواه أحمد وابن ماجة .

وقال الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس في قوله ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾ قال قياماً على ثلاث قوائم ، معقولة يدها اليسرى ، يقول : باسم الله والله اكبر لا إله إلا الله ، اللهم منك ولك ؛ وكذلك روي عن مجاهد وعلي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس نحو هذا . وقال ليث عن مجاهد : اذا عقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث ، وروى ابن أبي نجيح عنه نحوه . وقال الضحاك : يعقل رجلاً فتكون على ثلاث . وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها فقال : ابعثها قياماً مقيدة ، سنة أبي القاسم ﷺ ؛ وعن جابر أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها ، رواه أبو داود . وقال ابن لهيعة : حدثني عطاء بن دينار أن سالم بن عبد الله قال لسليمان بن عبد الملك : قف من شقها الأيمن وانحر من شقها الأيسر . وفي صحيح مسلم عن جابر في صفة حجة الوداع قال فيه : فنحر رسول الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين بدنة جعل يطعنها بحربة في يده .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة قال : في حرف ابن مسعود ﴿صوافن﴾أي معقلة قياماً . وقال سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد من قرأها صوافن قال: معقولة ، ومن قرأها صواف قال تصف بين يديها ، وقال طاوس والحسن وغيرهما ﴿فاذكروا اسم الله عليها صوافي﴾يعني خالصة لله عز وجل ؛ وكذا رواه مالك عن الزهري . وقال عبد الرحمن بن زيد : صوافي ليس فيها شرك كشرك الجاهلية لأصنامهم .

وقوله ﴿فإذا وجبت جنوبها﴾ قال ابن أبي نجيح عن مجاهد : يعني سقطت إلى الأرض ، وهو رواية عن ابن عباس ، وكذا قال مقاتل بن حيان وقال العوفي عن ابن عباس : فإذا وجبت جنوبها يعني نحرت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : فإذا وجبت جنوبها ، يعني ماتت ، وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد ، فانه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتى تموت وتبرد حركتها . وقد جاء في حديث مرفوع «لا تعجلوا النفوس أن تزهق» وقد رواه الثوري في جامعه عن أيوب عن يحيى بن أبي كثير عن قرافصة الحنفي ، عن عمر بن الخطاب أنه قال ذلك ، ويؤيده حديث شداد بن

أوس في صحيح مسلم «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته» وعن أبي واقد الليثي قال : قال رسول الله ﷺ «ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه .

وقوله ﴿فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر﴾ قال بعض السلف : قوله ﴿فكلوا منها﴾ أمر إباحة . وقال مالك : يستحب ذلك ؛ وقال غيره : يجب ، وهو وجه لبعض الشافعية . واختلفوا في المراد بالقانع والمعتر ؛ فقال العوفي عن ابن عباس : القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته ، والمعتر الذي يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل ؛ وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : القانع المتعفف ، والمعتر السائل ؛ وهذا قول قتادة وإبراهيم النخعي ومجاهد في رواية عنه . وقال ابن عباس وعكرمة وزيد بن أسلم والكلبي والحسن البصري ومقاتل بن حيان ومالك بن أنس : القانع هو الذي يقنع إليك ويسألك ، والمعتر الذي يعتريك يتضرع ولا يسألك ، وهذا لفظ الحسن . وقال سعيد بن جبير : القانع هو السائل ، قال : أما سمعت قول الشماخ :

لمال المرء يصلحه فيغني مفاقره أعف من القنوع

قال : يغني من السؤال ؛ وبه قال ابن زيد . وقال ابن أسلم : القانع المسكين الذي يطوف ، والمعتر الصديق والضعيف الذي يزور ، وهو رواية عن ابنه عبد الرحمن بن زيد أيضاً . وعن مجاهد أيضاً : القانع جارك الغني الذي يبصر ما يدخل بيتك ، والمعتر الذي يعتزل من الناس ؛ وعنه ؛ أن القانع هو الطامع ، والمعتر هو الذي يعتر بالبدن من غني أو فقير ، وعن عكرمة نحوه ؛ وعنه : القانع أهل مكة ، واختار ابن جرير أن القانع هو السائل ، لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال ، والمعتر من الاعتراء وهو الذي يتعرض لأكل اللحم . وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء : فثلث لصاحبها يأكله ، وثلث يهديه لأصحابه ، وثلث يتصدق به على الفقراء ، لأنه تعالى قال ﴿فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر﴾ .

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال للناس «إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث ، فكلوا وادخروا ما بدا لكم» . وفي رواية «فكلوا وادخروا وتصدقوا» . وفي رواية «فكلوا وأطعموا وتصدقوا» . والقول الثاني : أن المضحي يأكل النصف ويتصدق بالنصف ، لقوله في الآية المتقدمة ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ ولقوله في الحديث «فكلوا وادخروا وتصدقوا» فان أكل الكل ، فقيل ؛ لا يضمن شيئاً ، وبه قال ابن سريج من الشافعية . وقال بعضهم : يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها . وقيل يضمن نصفها وقيل ثلثها . وقيل أدنى جزء منها ، وهو المشهور من مذهب الشافعي . وأما الجلود ففي مسند أحمد عن قتادة بن النعمان في حديث الأضاحي «فكلوا وتصدقوا ، واستمتعوا بجلودها ولا تبيعوها» ومن العلماء من رخص في بيعها ، ومنهم من قال : يقاسم الفقراء فيها ، والله أعلم .

[مسألة] عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ، ثم نرجع فننحر ، فمن فعل فقد أصاب سنتنا ، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء» أخرجاه ، فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء : إن أول وقت ذبح الأضاحي إذ طلعت الشمس يوم النحر ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين ، زاد أحمد : وأن يذبح الإمام بعد ذلك لما جاء في صحيح مسلم : وأن لا تذبحوا حتى يذبح الإمام . وقال أبو حنيفة : أما أهل السواد من القرى ونحوها فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر إذ لا صلاة عيد تشرع عنده لهم . وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام ، والله أعلم . ثم قيل : لا يشرع بالذبح إلا يوم النحر وحده . وقيل : يوم النحر لأهل الأمصار لتيسر الأضاحي عندهم ، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده ؛ وبه قال سعيد بن جبير . وقيل : يوم النحر ويوم بعده للجميع ، وقيل : ويومان بعده ، وبه قال الإمام أحمد . وقيل : يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده ؛ وبه قال الشافعي لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال «أيام التشريق كلها ذبح» رواه أحمد وابن حبان . وقيل : إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذي الحجة ؛ وبه قال إبراهيم النخعي وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وهو قول غريب . وقوله ﴿كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾ يقول تعالى من أجل هذا ﴿سخرناها لكم﴾ أي ذللناها لكم ، وجعلناها منقادة لكم خاضعة ، إن شئتم ركبتم ، وإن شئتم حلبتم ، وإن شئتم ذبحتم ، كما قال تعالى : ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون - إلى قوله - أفلا يشركون﴾ وقال في هذه الآية الكريمة ﴿كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾ .

لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى : إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها ، فإنه الخالق الرزاق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها ، فإنه تعالى هو الغني عما سواه وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ، ونضحوا عليها من دمائها ، فقال تعالى : ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها﴾ . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي ابن الحسين ، حدثنا محمد بن أبي حماد ، حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج قال : كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فنحن أحق أن ننضح ، فأنزل الله ﴿لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ أي يتقبل ذلك ويجزي عليه ، كما جاء في الصحيح «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» . وجاء في الحديث «إن الصدقة لتقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد السائل ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع إلى الأرض» كما تقدم في الحديث ؛ رواه ابن ماجة والترمذي ، وحسنه عن عائشة مرفوعاً ، فمعناه أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا ، والله أعلم .

وقال وكيع عن يحيى بن مسلم بن الضحاك : سألت عامراً الشعبي عن جلود الأضاحي ؛ فقال ﴿لن ينالَ الله لحومُها ولا دماؤها﴾ إن شئت فبع ، وإن شئت فأمسك ، وإن شئت فتصدق . وقوله ﴿كذلك سخرها لكم﴾ أي من أجل ذلك سخر لكم البدن ﴿لتكبروا الله على ما هداكم﴾ أي لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ويرضاه ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه . وقوله ﴿وبشر المحسنين﴾ أي وبشر يا محمد المحسنين أي في عملهم القائمين بحدود الله المتبعين ما شرع لهم المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل .

[مسألة] وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوري إلى القول بوجوب الأضحية على من ملك نصاباً ، وزاد أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضاً ، واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجة بإسناد رجاله ، كلهم ثقات ، عن أبي هريرة مرفوعاً «من وجد سعة فلم يضح ، فلا يقربن مصلانا» على أن فيه غرابة ، واستنكره أحمد بن حنبل ، وقال ابن عمر : أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحي ، رواه الترمذي . وقال الشافعي وأحمد : لا تجب الأضحية بل هي مستحبة لما جاء في الحديث «ليس في المال حق سوى الزكاة» وقد تقدم أنه عليه الصلاة والسلام ضحى عن أمته ، فأسقط ذلك وجوبها عنهم . وقال أبو شريحة : كنت جاراً لأبي بكر وعمر ، فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما ، وقال بعض الناس : الأضحية سنة كفاية ، إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة أو بيت ، سقطت عن الباقين لأن المقصود إظهار الشعار . وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن وحسنه الترمذي عن مخنف بن سليم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات «على كل أهل بيت في كل عام أضحاة وعتيرة ، هل تدرون ما العتيرة ؟ هي التي تدعونها الرجبية» وقد تكلم في إسناده . وقال أبو أيوب : كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته ، فيأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس ، فصار كما ترى ، رواه الترمذي وصححه وابن ماجة ، وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله ، رواه البخاري . وأما مقدار سن الأضحية فقد روى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال «لا تذبحوا إلا مسنة ، إلا أن تعسر عليكم فتذبحوا جذعه من الضأن» ومن ههنا ذهب الزهري إلى أن الجذع لا يجزيء ، وقابله الأوزاعي فذهب إلى أن الجذع يجزيء من كل جنس ، وهما غريبان . والذي عليه الجمهور إنما يجزيء الثني من الإبل والبقر والمعز ، أو الجذع من الضأن ، فأما الثني من الإبل فهو الذي له خمس سنين ودخل في السادسة ، ومن البقر ما له سنتان ودخل في الثالثة ، وقيل ما له ثلاث ودخل في الرابعة ، ومن المعز ما له سنتان ، وأما الجذع من الضأن فقيل ما له سنة ، قيل عشرة أشهر ، وقيل ثمانية ، وقيل ستة أشهر ، وهو أقل ما قيل في سنه ، وما دونه فهو حمل ، والفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم . والجذع شعر ظهره نائم ، قد انفرق صدعين والله أعلم .

إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ، كما قال تعالى : ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ وقال ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ وقوله ﴿إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا ، وهو الخيانة في العهود والمواثيق لا يفي بما قال ، والكفر الجحد للنعم ، فلا يعترف بها .

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

قال العوفي عن ابن عباس : نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة . وقال مجاهد والضحاك ، وغير واحد من السلف كابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم : هذه أول آية نزلت في الجهاد ؛ واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية . وقال ابن جرير : حدثني يحيى بن داود الواسطي ، حدثنا إسحاق بن يوسف عن سفيان عن الأعمش عن مسلم هو البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن . قال ابن عباس : فأنزل الله عز وجل ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : فعرفت أنه سيكون قتال . وقال الإمام أحمد عن إسحاق بن يوسف الأزرق به ، وزاد : قال ابن عباس وهي أول آية نزلت في القتال . ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما وابن أبي حاتم من حديث إسحاق بن يوسف ، زاد الترمذي ووكيع كلاهما عن سفيان الثوري به . وقال الترمذي : حديث حسن ، وقد رواه غير واحد عن الثوري وليس فيه ابن عباس .

وقوله ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته ، كما قال ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ وقال تعالى : ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾ وقال ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون﴾ وقال ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ وقال ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ والآيات في هذا كثيرة .

ولهذا قال ابن عباس في قوله ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ وقد فعل ، وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به ، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقين لشق عليهم ، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ . وكانوا نيفا وثمانين ، قالوا : يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي ، يعنون أهل منى ، ليالي منى فنقتلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ «إني لم أومر بهذا» فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهموا بقتله ، وشردوا أصحابه شذر مذر ، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه ، وقاموا بنصره ، وصارت لهم دار إسلام ومعقلا يلجئون إليه ، شرع الله جهاد الأعداء ، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك ، فقال تعالى : ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق﴾ قال العوفي عن ابن عباس : أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق ، يعني محمداً وأصحابه ﴿إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة ، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له ، وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر ، وأما عند المشركين فإنه أكبر الذنوب ، كما قال تعالى : ﴿يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون في بناء الخندق ويقولون :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا * فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا * إن الألى قد بغوا علينا * إذا أرادوا فتنة أبينا

فيوافقهم رسول الله ﷺ ويقول معهم آخر كل قافية ، فإذا قالوا * إذا أرادوا فتنة أبينا * يقول : أبينا يمد بها صوته ، ثم قال تعالى : ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ، ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب ، لفسدت الأرض ولأهلك القوي الضعيف ﴿لهدمت صوامع﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان ، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك وغيرهم . وقال قتادة : هي معابد الصابئين ، وفي رواية عنه : صوامع المجوس ، وقال مقاتل بن حيان : هي البيوت التي على الطرق ﴿وبيع﴾ وهي أوسع منها ، وأكثر عابدين فيها ، وهي للنصارى أيضاً ، قاله أبو العالية وقتادة والضحاك وابن صخر ومقاتل بن حيان وخصيف وغيرهم . وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره أنها كنائس اليهود ، وحكى السدي عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس اليهود ، ومجاهد إنما قال : هي الكنائس ، والله أعلم .

وقوله ﴿وصلوات﴾ قال العوفي عن ابن عباس : الصلوات الكنائس وكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة : إنها كنائس اليهود ، وهم يسمونها صلوات . وحكى السدي عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس النصارى . وقال أبو العالية وغيره : الصلوات معابد الصابئين . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : الصلوات مساجد لأهل الكتاب ولأهل الاسلام بالطرق ، وأما المساجد فهي للمسلمين . وقوله ﴿يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ فقد قيل : الضمير في قوله يذكر فيها عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات . وقال الضحاك : الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً . وقال ابن جرير : الصواب لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود ، وهي كنائسهم ، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً ، لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب . وقال بعض العلماء : هذا ترق من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد وهي أكثر عمارا وأكثر عبادا وهم ذوو القصد الصحيح .

وقوله ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ كقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم﴾ . وقوله ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة ، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا ، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب ، بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه ، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور ، قال الله تعالى : ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ وقال تعالى : ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز﴾ .

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الربيع الزهراني ، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب وهشام عن محمد قال : قال عثمان بن عفان ، فينا نزلت ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا : ربنا الله ثم مكنا في الأرض ، فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور فهي لي ولأصحابي . وقال أبو العالية : هم أصحاب محمد ﷺ وقال الصباح بن سوادة الكندي : سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول ﴿الذين إن مكناهم في الأرض﴾ الآية ، ثم قال : ألا إنها ليست على الوالي وحده ، ولكنها على الوالي والمولى عليه ، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم ، وبما للوالي عليكم منه ؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يأخذكم بحقوق الله عليكم ، وأن يأخذ لبعضكم من بعض ، وأن يهديكم لتي هي أقوم ما استطاع ؛ وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكره بها ، ولا المخالف سرها علانيتها . وقال عطية العوفي : هذه الآية كقوله ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾ وقوله ﴿ولله عاقبة الأمور﴾ كقوله تعالى : ﴿والعاقبة للمتقين﴾ . وقال زيد بن أسلم ﴿ولله عاقبة الأمور﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا .

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ

أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح - إلى أن قال - وكذب موسى﴾ أي مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات ﴿فأمليت للكافرين﴾ أي أنظرتهم وأخرتهم ، ﴿ثم أخذتهم فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم ؟! وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه : أنا ربكم الأعلى ، وبين إهلاك الله له أربعون سنة . وفي الصحيحين عن موسى عن النبي ﷺ أنه قال «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ ثم قال تعالى : ﴿فكأين من قرية أهلكناها﴾ أي كم من قرية أهلكتها ﴿وهي ظالمة﴾ أي مكذبة لرسلها ﴿فهي خاوية على عروشها﴾ قال الضحاك : سقوفها ، أي قد خربت وتعطلت حواضرها ﴿وبئر معطلة﴾ أي لا يستقي منها ، ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها ﴿وقصر مشيد﴾ قال عكرمة يعني المبيض بالجص ؛ وروي عن علي بن أبي طالب ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبي المليح والضحاك نحو ذلك . وقال آخرون : هو المنيف المرتفع . وقال آخرون : المشيد المنيع الحصين ، وكل هذه الأقوال متقاربة ولا منافاة بينها ، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم كما قال تعالى : ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ .

وقوله ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ أي بأبدانهم وبفكرهم أيضاً ، وذلك كاف كما قال ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار : حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر ، حدثنا مالك بن دينار قال : أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام أن يا موسى اتخذ نعلين من حديد وعصا ، ثم سح في الأرض ، ثم اطلب الآثار والعبر ، حتى يتخرق النعلان وتنكسر العصا . وقال ابن أبي الدنيا : قال بعض الحكماء : أحي قلبك بالمواعظ ، ونوره بالتفكر ، وموته بالزهد ، وقوّه باليقين ، وذلله بالموت ، وقدره بالفناء ، وبصره فجائع الدنيا ، وحذره صولة الدهر وفحش تقلب الأيام ، واعرض عليه أخبار الماضين ، وذكره ما أصاب من كان قبله ، وسيره في ديارهم وآثارهم ، وانظر ما فعلوا وأين حلوا وعم انقلبوا ؛ أي فانظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾ أي فيعتبرون بها ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ أي ليس العمى عمى البصر ، وإنما عمى البصيرة ، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر ، وما أحسن ما قاله بعض الشعراء في هذا المعنى ، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن حيان الأندلسي التستري ، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة :

يا من يصيخ إلى داعي الشقاء وقد ... نادى به الناعيان الشيب والكبر
إن كنت لا تسمع الذكرى ففيم ترى ... في رأسك الواعيان السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل ... لم يهده الهاديان العين والأثر
لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك الأ ... على ولا النيّران الشمس والقمر
ليرحلن عن الدنيا وإن كرها ... فراقها الثاويان البدو والحضر

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ أي هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر ، كما قال تعالى ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾ . وقوله ﴿ولن يخلف الله وعده﴾ أي الذي وعد من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه ، والإكرام لأوليائه . قال الأصمعي : كنت عند أبي عمرو بن العلاء ، فجاءه عمرو بن عبيد فقال : يا أبا عمر ، هل يخلف الله الميعاد ؟ فقال : لا ، فذكر آية وعيد ، فقال له : أمن العجم أنت ؟ إن العرب تعد

الرجوع عن الوعد لؤماً ، وعن الإيعاد كرماً ، أما سمعت قول الشاعر :

ليرهب ابن العم والجار سطوتي ولا أنثني عن سطوة المتهدد
فإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وقوله ﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ أي هو تعالى لا يعجل ، فان مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه ، لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء وإن أجل وأنظر وأملى ، ولهذا قال بعد هذا ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير﴾ قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثني عبدة بن سليمان عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام» ورواه الترمذي والنسائي من حديث الثوري عن محمد بن عمرو به ، وقال الترمذي : حسن صحيح . وقد رواه ابن جرير عن أبي هريرة موقوفا فقال : حدثني يعقوب ، ثنا ابن علية ، ثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة عن سمير بن نهار قال : قال أبو هريرة : يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم ، قلت : وما مقدار نصف يوم ؟ قال أو ما تقرأ القرآن ؟ قلت ؛ بلى ، قال ﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ .

وقال أبو داود في آخر كتاب الملاحم من سننه : حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال «إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم» قيل لسعد : وما نصف يوم ؟ قال : خمسمائة سنة . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن إسرائيل عن سماك ، عن عكرمة عن ابن عباس ﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ قال : من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض . ورواه ابن جرير عن ابن يسار بن المهدي ، وبه قال مجاهد وعكرمة ، ونص عليه أحمد بن حنبل في كتاب الرد على الجهمية ، وقال مجاهد : هذه الآية كقوله ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عارم بن محمد بن الفضل ، حدثنا حماد بن زيد عن يحيى بن عتيق عن محمد بن سيرين ، عن رجل من أهل الكتاب أسلم قال : إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ وجعل أجل الدنيا ستة أيام ، وجعل الساعة في اليوم السابع ﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ .

فقد مضت الستة الأيام وأنتم في اليوم السابع فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها ففي أية لحظة ولدت كان تماماً .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به ﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾ أي إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم ، بين يدي عذاب شديد ، وليس إلي من حسابكم من شيء أمركم إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره عنكم ، وإن شاء تاب على من يتوب اليه ، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة ، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار ﴿لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾ ﴿وإنما أنا لكم نذير مبين﴾ ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ أي مغفرة لما سلف من سيئاتهم ، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم . قال محمد بن كعب القرظي : إذا سمعت الله تعالى يقول ﴿ورزق كريم﴾ فهو الجنة .

وقوله ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ قال مجاهد : يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ ، وكذا قال عبدالله بن الزبير : مثبطين . وقال ابن عباس معاجزين مراغمين ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ وهي النار الحارة الموجعة ، الشديد عذابها ونكالها ، أجارنا الله منها ، قال الله تعالى : ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح ، والله أعلم . قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم ، فلما بلغ هذا الموضع ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ قال : فألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن ترتجى ، قالوا : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجد وسجدوا ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ .

ورواه ابن جرير عن بندار عن غندر عن شعبة به بنحوه ، وهو مرسل ؛ وقد رواه البزار في مسنده عن يوسف بن حماد عن أمية بن خالد عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فيما أحسب الشك في الحديث ، أن النبي ﷺ قرأ بمكة سورة النجم حتى انتهى إلى ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ وذكر بقيته ، ثم قال البزار : لا نعلمه يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد ، تفرد بوصله أمية بن خالد ، وهو ثقة مشهور ، وإنما يروى هذا من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، ثم رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية وعن السدي مرسلاً ، وكذا رواه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس مرسلاً أيضاً .

وقال قتادة : كان النبي ﷺ يصلي عند المقام إذا نعس ، فألقى الشيطان على لسانه وإن شفاعتها لترتجى ، وإنها لمع الغرانيق العلى ، فحفظها المشركون وأجرى الشيطان أن النبي ﷺ قد قرأها : فذلت بها ألسنتكم ، فأنزل الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ الآية ، فدحر الله الشيطان ، ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي ، حدثنا محمد بن إسحاق الشيبي ، حدثنا محمد بن فليح عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر ، وكان رسول الله ﷺ اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنه ضلالهم ، فكان يتمنى هداهم ، فلما أنزل الله سورة النجم قال ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت ، فقال : وإنهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى ، وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم ، وتباشروا بها ، وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه ، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك ، غير أن الوليد ابن المغيرة كان رجلاً كبيراً فرفع ملء كفه تراباً فسجد عليه ، فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله ﷺ ، فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين ، ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين ، فاطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطان في أمنية رسول الله ﷺ ، وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها في السورة ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم ، ففشت تلك الكلمة في الناس ، وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين عثمان بن مظعون وأصحابه ، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلوا مع رسول الله ﷺ ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه ، وحدثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة ، فأقبلوا سراعاً ، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته وحفظه من الفرية ، وقال الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ فلما بين الله قضاءه ، وبرأه من سجع الشيطان ، انقلب المشركون بضلالتهم

وعداوتهم المسلمين ، واشتدوا عليهم ، وهذا أيضاً مرسل .

وفي تفسير ابن جرير عن الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام نحوه ، وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة ، فلم يجز به موسى بن عقبة ساقه من مغازيه بنحوه ، قال : وقد روينا عن أبي إسحاق هذه القصة ﴿قلت﴾ وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا ، وكلها مرسلات ومنقطعات ، والله أعلم . وقد ساقها البغوي في تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما بنحو من ذلك ، ثم سأل ، ههنا سؤالاً : كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ؟ ثم حكى أجوبة عن الناس من ألطفها أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ ، وليس كذلك في نفس الأمر ، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن ﷺ ، والله أعلم .

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته . وقد تعرض القاضي عياض رحمه الله في كتاب الشفاء لهذا ، وأجاب بما حاصله أنها كذلك لثبوتها . وقوله ﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ، أي لا يهيدنك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء . قال البخاري : قال ابن عباس ﴿في أمنيته﴾ إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ﴿ثم يحكم الله آياته﴾ . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ يقول : إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه . وقال مجاهد ﴿إذا تمنى﴾ يعني إذا قال ، ويقال أمنيته قراءته ﴿إلا أماني﴾ يقرءون ولا يكتبون . قال البغوي وأكثر المفسرين قالوا : معنى قوله ﴿تمنى﴾ أي تلا وقرأ كتاب الله ﴿وألقى الشيطان في أمنيته﴾ أي في تلاوته ، قال الشاعر في عثمان حين قتل :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

وقال الضحاك ﴿إذا تمنى﴾ إذا تلا . قال ابن جرير هذا القول أشبه بتأويل الكلام . وقوله ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ حقيقة النسخ لغة الإزالة والرفع ؛ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أي فيبطل الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشيطان . وقال الضحاك : نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته . وقوله ﴿والله عليم﴾ أي بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية ﴿حكيم﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة والحجة البالغة ، ولهذا قال ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك وشرك وكفر ونفاق ، كالمشركين حين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح من عند الله ، وإنما كان من الشيطان . قال ابن جريج ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم المنافقون ، ﴿والقاسية قلوبهم﴾ هم المشركون .

وقال مقاتل بن حيان : هم اليهود ﴿وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد ، أي من الحق والصواب ، ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به﴾ أي وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحيناه اليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه ، وحرسه أن يختلط به وغيره بل هو كتاب عزيز ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ . وقوله ﴿فيؤمنوا به﴾ أي يصدقوه وينقادوا له ، ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ أي تخضع وتذل له قلوبهم ، ﴿وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ أي في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه ، وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات ، ويزحزهم عن العذاب الأليم والدركات .

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم لا يزالون في مرية ، أي في شك من هذا القرآن ، قال ابن جريج واختاره ابن جرير . وقال سعيد بن جبير وابن زيد منه ، أي مما ألقى الشيطان ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة﴾ قال مجاهد : فجأة ، وقال قتادة ﴿بغتة﴾ بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله

إلا القوم الفاسقون . وقوله ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ قال مجاهد : قال أبي بن كعب : هو يوم بدر ؛ وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير . قال عكرمة ومجاهد في رواية عنهما : هو يوم القيامة ، لا ليل له ؛ وكذا قال الضحاك والحسن البصري ، وهذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به لكن هذا هو المراد ، ولهذا قال ﴿الملك يومئذ لله يحكم بينهم﴾ كقوله ﴿مالك يوم الدين﴾ .

وقوله ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيرا﴾ ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله وعملوا بمقتضى ما علموا ، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم ﴿في جنات النعيم﴾ أي لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي كفرت قلوبهم بالحق وجحدته ، وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم ﴿فأولئك لهم عذاب مهين﴾ أي مقابلة استكبارهم وإبائهم عن الحق ، كقوله تعالى : ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي صاغرين .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاته وطلباً لما عنده ، وترك الأوطان والأهلين والخلان ، وفارق بلاده في الله ورسوله ، ونصرة لدين الله ثم قتلوا ، أي في الجهاد ، أو ماتوا أي حتف أنفهم من غير قتال على فرشهم ، فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل ، كما قال تعالى : ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ . وقوله ﴿ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ أي ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿وإن الله لهو خير الرازقين * ليدخلنهم مدخلاً يرضونه﴾ أي الجنة كما قال تعالى : ﴿فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة ونعيم﴾ فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة النعيم ، كما قال ههنا ﴿ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ ثم قال ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم﴾ أي بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك ﴿حليم﴾ أي يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه .

فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر ، فانه حي عند ربه يرزق كما قال تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ والأحاديث في هذا كثيرة كما تقدم ، وأما من توفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر ، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه وعظيم إحسان الله إليه . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا المسيب بن واضح ، حدثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن شريح عن ابن الحارث ـ يعني عبد الكريم ـ عن ابن عقبة يعني أبا عبيدة بن عقبة قال : قال شرحبيل بن السمط : طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم ، فمر بي سلمان يعني الفارسي رضي الله عنه ، فقال : إني سمعت رسول الله يقول «من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر ، وأجرى عليه الرزق ، وأمن من الفتانين ، واقرءوا إن شئتم ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم﴾ .»

وقال أيضاً : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا زيد بن بشر ، أخبرني همام أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المعافري يقولان : كنا ببرودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ ، فمر بجنازتين إحداهما قتيل ، والأخرى متوف ، فمال الناس على القتيل ، فقال فضاله : ما لي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا : هذا القتيل في سبيل الله ؛ فقال : والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت ؟ اسمعوا كتاب الله ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا﴾ حتى بلغ آخر الآية ، وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أنبأنا ابن المبارك ، أنبأنا ابن لهيعة ، حدثنا سلامان بن عامر الشيباني أن عبد الرحمن بن جحدم الخولاني حدثه أنه حضر فضالة بن عبيد في البحر مع جنازتين أحدهما أصيب بمنجنيق ، والآخر توفي ؛ فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى فقيل له : تركت الشهيد فلم تجلس عنده ؟ فقال : ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت ان الله يقول ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ الآيتين ، فما تبتغي أيها العبد إذا أدخلت مدخلاً ترضاه ، ورزقت رزقاً حسناً ، والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت .

ورواه ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب ، أخبرني عبد الرحمن بن شريح عن سلامان بن عامر قال : كان فضالة برودس أميراً على الأرباع ، فخرج بجنازتي رجلين ، أحدهما قتيل والآخر متوفى ، فذكر نحو ما تقدم . وقوله ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ الآية ، ذكر مقاتل بن حيان وابن جرير أنها نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم ، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم في الشهر الحرام ، فأبى المشركون الا قتالهم ، وبغوا عليهم ، فقاتلهم المسلمون فنصرهم الله عليهم ﴿ ان الله لعفو غفور ﴾ .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى منبهاً على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء ، كما قال ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير * تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ ومعنى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا ومن هذا في هذا ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء ، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف .

وقوله ﴿ وأن الله سميع بصير ﴾ أي سميع بأقوال عباده ، بصير بهم ، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم ، ولما تبين أنه المتصرف في الوجود ، الحاكم الذي لا معقب لحكمه قال ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وكل شيء فقير إليه ، ذليل لديه ﴿ وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ أي من الأصنام والأنداد والأوثان ، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل ، لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً . وقوله ﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾ كما قال ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ وقال ﴿ وهو الكبير المتعال ﴾ فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، لأنه العظيم الذي لا أعظم منه ، العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي لا أكبر منه ، تعالى وتقدس وتنزه عز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۚ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

وهذا أيضاً من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه يرسل الرياح فتثير سحاباً فتمطر على الأرض الجرز التي لا نبات فيها ، وهي هامدة يابسة سوداء ممحلة ، ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ . وقوله ﴿ فتصبح الأرض مخضرة ﴾ الفاء ههنا للتعقيب ، وتعقيب كل شيء بحسبه ، كما قال تعالى : ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ﴾ الآية ، وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل شيئين أربعين يوماً ، ومع هذا هو معقب بالفاء ، وهكذا ههنا قال ﴿ فتصبح الأرض مخضرة ﴾ أي خضراء بعد يباسها ومحولها . وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز أنها تصبح عقب المطر خضراء ، فالله أعلم .

وقوله ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ أي عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر ، ولا يخفى عليه خافية ، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به ، كما قال لقمان ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ وقال ﴿ ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في

كتاب مبين ﴾ وقال ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ ولهذا قال أمية بن أبي الصلت أو زيد بن عمرو بن نفيل في قصيدته :

وقولا له من ينبت الحب في الثرى ؟ فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رءوسه ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي ملكه جميع الأشياء ، وهو غني عما سواه ، وكل شيء فقير اليه عبد لديه . وقوله ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ﴾ أي من حيوان وجماد وزروع وثمار ، كما قال ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ أي من إحسانه وفضله وامتنانه ﴿ والفلك تجري في البحر بأمره ﴾ أي بتسخيره وتسييره ، أي في البحر العجاج وتلاطم الأمواج تجري الفلك بأهلها بريح طيبة ورفق وتؤدة فيحملون فيها ما شاءوا من تجائر وبضائع ومنافع من بلد إلى بلد وقطر إلى قطر ، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء ، كما ذهبوا بما عند هؤلاء الى أولئك مما يحتاجون اليه ويطلبونه ويريدونه ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها ، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه،ولهذا قال ﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ أي مع ظلمهم ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ .

وقوله ﴿ وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور ﴾ كقوله ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون ﴾ . وقوله ﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ . وقوله ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ ومعنى الكلام : كيف تجعلون لله أندادا وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف ﴿ وهو الذي أحياكم ﴾ أي خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر ، فأوجدكم ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ أي جحود .

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾
وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً ، قال ابن جرير : يعني لكل أمة نبي منسكاً ، قال : وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه إما لخير أو شر ، قال : ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لترداد الناس اليها وعكوفهم عليها ، فان كان كما قال من ان المراد لكل أمة نبي جعلنا منسكاً ، فيكون المراد بقوله فلا ينازعنك في الأمر أي هؤلاء المشركون ، وإن كان المراد لكل أمة جعلنا منسكاً جعلاً قدرياً كما قال ﴿ ولكل وجهة هو موليها ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ هم ناسكوه ﴾ أي فاعلوه ، فالضمير ههنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق ، أي هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته ، فلا تتأثر بمنازعتهم لك ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق ، ولهذا قال ﴿ وادع الى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ أي طريق واضح مستقيم موصل الى المقصود ، وهذه كقوله ﴿ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت اليك وادع إلى ربك ﴾ .

وقوله ﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ كقوله ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ . وقوله ﴿ الله أعلم بما تعملون ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد ، كقوله ﴿ وهو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم ﴾ ولهذا قال ﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ وهذه كقوله تعالى : ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ الآية .

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه ، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها ، وكتب ذلك في كتابه اللوح

المحفوظ ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال « أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب ، قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن ، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا ابن بكير ، حدثني عطاء بن دينار ، حدثني سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس : خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام ، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش تبارك وتعالى : اكتب ، فقال القلم : وما أكتب ؟ قال : علمي في خلقي الى يوم الساعة ، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة ، فذلك قوله للنبي ﷺ ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ﴾ وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها ، وقدرها وكتبها أيضاً ، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه ، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره ، وهذا يعصي باختياره ، وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شيء علماً ، وهو سهل عليه يسير لديه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ، يعني حجة وبرهاناً ، كقوله ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم ﴾ أي ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه ، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة ، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم ، ولهذا توعدهم تعالى بقوله ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ أي من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال ، ثم قال ﴿ وإذ تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أي وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحج والدلائل الواضحات على توحيد الله ، وأنه لا إله إلا هو ، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿ يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ أي يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لهؤلاء ﴿ أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا ﴾ أي النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا ، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتم بزعمكم وإرادتكم وقوله : ﴿ وبئس المصير ﴾ أي وبئس النار مقيلاً ومنزلاً ومرجعاً وموئلاً ومقاماً ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل ﴾ أي لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿ فاستمعوا له ﴾ أي انصتوا وتفهموا ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك . كما قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا شريك عن عمارة بن القعقاع ، عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة مرفوعاً قال : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا مثل خلقي ذرة أو ذبابة أو حبة » ، واخرجه صاحبا الصحيح من طريق عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال « قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » ، ثم قال تعالى أيضاً ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد ، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب ، ثم أرادت أن

تستنقذه منه لما قدرت على ذلك ، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ، ولهذا قال ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ قال ابن عباس : الطالب الصنم ، والمطلوب الذباب ، واختاره ابن جرير ، وهو ظاهر السياق . وقال السدي وغيره : الطالب العابد ، والمطلوب الصنم ، ثم قال ﴿ ما قدروا الله حق قدره ﴾ أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ ﴿ إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ . وقوله ﴿ عزيز ﴾ أي قد عز كل شيء فقهره وغلبه ، فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه ، وهو الواحد القهار .

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالته ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ أي سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، عليم بمن يستحق ذلك منهم ، كما قال ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ، وقوله ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به ، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ، كما قال ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ـ إلى قوله ـ وأحصى كل شيء عدداً ﴾ فهو سبحانه رقيب عليهم ، شهيد على ما يقال لهم ، حافظ لهم ، ناصر لجنابهم ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ الآية .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه السجدة الثانية من سورة الحج : هل هي مشروع السجود ،، فيها ، أم لا ؟ على قولين ، وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ « فضلت سورة الحج بسجدتين ، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما » . وقوله . ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ أي بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم ، كما قال تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ . وقوله ﴿ هو اجتباكم ﴾ أي يا هذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم ، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ أي ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً ، فالصلاة التي هي أكبر أركان الاسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعاً ، وفي السفر تقصر إلى اثنتين ، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة ، كما ورد به الحديث ، وتصلى رجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها ، والقيام فيها يسقط لعذر المرض ، فيصليها المريض جالساً ، فإن لم يستطع فعلى جنبه ، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات ، ولهذا قال عليه السلام « بعثت بالحنيفية السمحة »وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين الى اليمن « بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا » ؛ والأحاديث في هذا كثيرة ، ولهذا قال ابن عباس في قوله ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ يعني من ضيق .

وقوله ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ قال ابن جرير : نصب على تقدير ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ أي من ضيق بل وسعه عليكم كملة ابيكم إبراهيم ، قال : ويحتمل انه منصوب على تقدير الزموا ملة أبيكم إبراهيم . ﴿ قلت ﴾ وهذا المعنى في هذه الآية كقوله ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ الآية ؛ وقوله ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ وفي هذا قال الإمام عبد الله بن المبارك عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس في قوله

﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ قال : الله عز وجل ؛ وكذا قال مجاهد وعطاء والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان وقتادة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ يعني إبراهيم ، وذلك قوله ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ قال ابن جرير : وهذا لا وجه له ، لأنه من المعلوم ان إبراهيم لم يسم هذه الأمة في القرآن مسلمين ، وقد قال الله تعالى : ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ﴾ قال مجاهد : الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر ، ﴿ وفي هذا ﴾ يعني القرآن ؛ وكذا قال غيره . (قلت) وهذا هو الصواب ، لأنه تعالى قال ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل ، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء يتلى على الأحبار والرهبان ، فقال ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿ وفي هذا ﴾ روى النسائي عند تفسير هذه الآية : أنبأنا هشام بن عمار ، حدثنا محمد بن شعيب ، أنبأنا معاوية بن سلام أن أخاه زيد بن سلام أخبره عن أبي سلام أنه أخبره ، قال : اخبرني الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال « من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم » قال رجل : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال « نعم وإن صام وصلى» فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله ، وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ من سورة البقرة ، ولهذا قال ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسط عدولا خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم ، لتكونوا يوم القيامة ﴿ شهداء على الناس ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها ، فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم ، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك ، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ وذكرنا حديث نوح وأمته بما أغنى عن إعادته .

وقوله ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أي قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض وطاعة ما أوجب وترك ما حرم ، ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج ، كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من سورة التوبة . وقوله ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به ﴿ هو مولاكم ﴾ أي حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ يعني نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء . قال وهيب بن الورد يقول الله تعالى : ابن آدم اذكرني إذا غضبت ، أذكرك إذا غضبت فلا أمحقك فيمن أمحق ، وإذا ظلمت فاصبر وارض بنصرتي ، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك . رواه ابن أبي حاتم ، والله أعلم .

سورة المؤمنون

ترتيبها ٢٣ — آياتها ١١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾